خواطر إنسان.. بلا وطن

حاولتُ فيها أن أقطف من شجرة الحياة بعض أوراقها..
ألقي عليها أضوائي.. عسى أن يبصر بها أحد

لحظة الغروب

يد النجاة

أسرار الحياة

الأرض الطيبة

الشاطئ والسفينة

ابتسامة الحياة

الإنسان والأنعام

ذرة اليورانيوم

ثورة الرياح

اختبارات الحياة

القارب الصغير

ضد التيار

مشاعر مجهولة

أين أنتِ ؟

بلا وطن

لحظة الغروب

عند شاطئ البحر.. والشمس تستأذن ربها الرحيل، تراها العين وهي تذوب في موج البحر.. يراها القلب تحمل في هذا المشهد الرائع، سر الحياة وعمقها، ومدى عظمتها واتساعها..

إنه بالرغم من تكراره كل يوم.. إلا أنه في كل مرة يحمل مذاقاً خاصاً وطبيعة جديدة ولحناً مختلفاً.. إنه يقرر أنه لا تكرار في أحداث الكون.. وأن العيب في نفوسنا حين تألف تلك المشاهد ولا تستوعب جمالها وروعتها..

حين يتأمل القلب هذا المشهد يدرك سنن الحياة.. ويعرف أحد أسرار هذا الكون..

إنه يرى نفسه ذرة أمام مكون واحد في هذا الوجود.. يرى نفسه نقطة بالنسبة للبحر، وذرة إشعاع بالنسبة للشمس.. ويعرف أن كليهما ذرتين في هذا الوجود الكبير.. لكنه من جانب آخر يعرف أنه سيد هذا الكون.. فعلى اتساع الوجود وبديع صنعه إلا أن الإنسان تميز عن كل مخلوقات الوجود بنعمة العقل، وبنفخة الروح التي صار الإنسان بها إنسانا..

إنه يستشعر أن له شأناً عظيماً، وليس مجرد كائن محدود الوجود.. فالله يعده حين يحفظ أمانة عقله ويسمو بروحه.. يعده جنات ملكاً له وحده، فيملك بحاراً وأنهاراً مثل التي يرى نفسه ذرة أمامها..

إن المولى سبحانه يقرب إلى عبده الجنة التي وعده إياها من خلال هذا الوجود الضخم ويصله به، فيعرف أن الله تبارك وتعالى قد كرم الإنسان أفضل تكريم..

إنه يُعرّفه أولاً أنه مخلوق، ثم يشعره من خلال هذا الكون معنى خلقه.. إنها كلمة ضخمة المدلول.. إنه لم يكن شيئاً ثم صار إنسانا، ثم يموت..

ولكن لا ينتهي شأنه.. إن الإنسان مخلوق أبدي.. رغم كونه أقل من الذرة في هذا الوجود، إنه التكريم الذي تفضل به المولى على هذا المخلوق.

وحين يدرك الإنسان سر هذه الحياة.. ذاك السر الذي يفصح عن نفسه في كل مرة يدرك فيها الإنسان ذاته، فيعرف أنه يمر في هذه الحياة بمجموعة اختبارات.. وفي كل اختبار ينجح فيه الإنسان، يتصحح معه مركزه في هذا الوجود الضخم.. وترتبط فيه الذرة التائهه بالكون الكبير.. وحين يفشل يظل في التيه إلى أن يرجع، إن شاء أن يرجع..

والعجيب أن هذه المشاهد الرائعة، حين تستقبلها النفس.. فإنها تنظفها من غبارها وأوساخها، لترتفع بها إلى آفاق أكبر من محيط الأرض.

وأكبر خسارة يخسرها الإنسان في حياته أن تألف نفسه العيش في التيه والفراغ، فلا يشعر ذاته ! إنه يخسر نفسه حين يتركها وأتربتها وركامها وطينها؛ فتفقد بريقها وحرارتها وإشعاعاتها، فتتعطل أجهزة الاستقبال فيها فلا تستقبل ألحان الوجود، ودروسه !

ثم ينتهي الاختبار .. لينقل إلى حياة أخرى بل حيوات.. حياة النعيم إن كان من الشاكرين.. وحياة الجحيم إن كان من الجاحدين.

ولا ينتهي المشهد عند هذا الحد، بل يُكمل له بقية أسرار الحياة .. إنه يستعرض له سنن الحياة في كل صفحة من صفحات هذا الوجود.. فهذه الشمس حين أشرقت كان لا بد لها أن تغرب.. ولكنها لا تتحرك في آليه.. إنها تتحرك في كل مرة بإذن ربها..

إن رحلتها من المشرق إلى المغرب.. تمثل نموذجاً مصغراً من هذه الحياة.. إنها تولد مع شروقها.. ثم تتحرك ببطء وتدريج، تربط نفسها مع الكون والوجود والأحياء فتؤثر فيهم بمقدار ما أراده الله لها، إنها

تولد صغيرة ثم تكبر شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى منتصف السماء فهنا شبابها وقوتها، ثم تأخذ خطها التدريجي كما بدأت أول مرة، لتنتهي تدريجياً ليبتلعها البحر أو تذوب فيه.

إنها تخبرنا كل يوم برحلتنا نحن في هذه الحياة، وتشرح لنا في بساطة ويسر، دون تعقيد أو تقعير، سننها وطبيعتها.. في صفحة الوجود التي أبدعها الخالق العظيم.

إن التغيير يحدث لها تدريجياً مثلما يحدث للإنسان.. وإن عمرها ينتهي حتماً كما سينتهي عمر الإنسان، وتخبرنا أن الطبيعة جميلة ومتنوعة، فليس لها ألية.. إنها تنوع من وضعها، فهي تداعب السحاب حيناً، ويغشاها السحاب حيناً آخر، وترسم لوحة رائعة مع قطرات المطر، وملمسة حانية مع قطرات الندى، فهي صديقة للجميع، وتظهر كل يوم في ثوب جديد..

وتحذرنا كذلك عند لحظة الغروب من انتهاء الاختبارات في هذه الحياة.. فهناك يوم ستشرق فيه من حيث غربت، لتنتهي الرحلة كلها.. لتعلن عن بداية جديدة لحياة الإنسان الأبدية.

يد النجاة

أكثر المشاهد التي انفعل أمامها، وأتوقف كثيراً عندها.. هو ذاك المشهد الذي شهدته البشرية في عهدها الأول، حين أذن الرب ـ سبحانه ـ بانتهاء أحد اختبارات الإنسان..

تحركت جنود الرحمن .. فأسقطت السماء أمطارها، وفجرت الأرض مياهها.. إنها هي هي الأمطار والمياه التي ينتفع بها الإنسان، ولا غنى له عنها.. إنها الآن تتحرك، لتغرق كل شيئ.. لتغرق الأرض ومن عليها، إلا العصبة المختارة التي نجحت في " الاختبارات " فهي على سفينة النجاة..

ويُكشف الستار على مشهد خطير عجيب.. ليترك للمتأملين بعده عبرة وعظة.. عسى أن تفيدهم فيما هم قادمون إليه.

يبدأ المشهد بتحقيق وعيد الله بالهلاك.. تطهرت الأرض ممن رفض تكريم الله له، وكفر بإنسانيته، وأبى إلا أن يكون أضل من الأنعام.. فرّط في الأمانة التي تشرف بحملها.. والتي وعده الله بنعيم عظيم إذا أداها، وبعذاب مقيم إذا خانها..

وفي آخر لحظة في هذا المشهد، يتكشف لنا المرض القاتل المُهلك للنفس الإنسانية والحياة البشرية.. " الكبر والعناد".

يمد النبي الكريم.. الأب الحنون يديه إلى ابنه وهو يغرق، فيأبى الابن ! ويبحث عن جبل ! يعصمه من الماء! هكذا تصور الابن !!

تصور أن الذي سيعصمه جبل.. وأن الذي يحيط به ماء.. هذه هي موازينه الشعورية، موازين باطلة، لم تعرف من العاصم، ولم تدرك ما الماء ؟!

أما القيم النفسية، فقد كان الكبر والعناد في أعلاها..

ولم يشفع لهما مشهد الهلاك الحاصل، ورجاء النبي الواصل..

إن الإنسان لا يستطيع أن يدرك هذا المشهد، إلا عندما يتذكر مشهد الكبر الأول الذي أهلك الشيطان.. الكبر في مقام العبودية ! والعناد أمام قوة الحق !

غرق الابن بجسده، وقبلها غرقت نفسه.. عندما تعطلت أجهزة الاستقبال والتوجيه فيها.. فلم تستقبل أي شيئ مهما كان ضخماً أو يحمل ومضات قوية، لم تدرك الهلاك.. وهو يحيط بها من كل جانب، ولم تعرف طريق النجاه.. والأيدي ممدودة إليها !.. لم تكن لتدرك، ولا تدرك ما هو أكبر من ذلك !

إنها تتعطل.. عندما يشعر الإنسان داخل نفسه أنه إله، عندما تتمرد نفسه عن حجمها الطبيعي، فتأخذ مسارات مهلكة، لا يستطيع السيطرة عليها.. عندما يعبد الإنسان هواه.. عندما يستسلم للرغبات التي أودعها الله في الإنسان لتستمر الحياة، وتتم الاختبارات.

وعندما يأتيها الحق وهي هكذا، تنفر منه.. تكفر به.. تنكره، وهي تصرخ في داخلها بأنه الحق !

وحين (تظن) عجزها عن تحقيق تكاليفه ومقتضياته، تفضل أن تظل على الباطل، ولا تشعر بالعجز.. فتتكبر عن الحق، لأنه يقول لها: إنها باطل، إنها ملوثة.. فتعلن عنادها وحربها.. فبينهما خصومة لا تحلها إلا الحرب، هذه هي رحلة النفس التي تحمل كبرها . هلاكها . مع الحق.

إنه مشهد متكرر في تاريخ الحياة البشرية، وحاضرها، ومستقبلها.

ثمة أمر يمكن أن ينقذ الإنسان.. هو الاعتراف بأن هناك حق، من أجله خُلق، وخلق الوجود من حوله.. وإذ لم يدرك . لأي سبب . هذا الحق، فعليه أن يبحث عنه مهما طالت رحلة البحث، حتى إذا وجده.. أحبه، واحتضنه.. وبدلاً من التكبر عليه، والعناد فيه، فإنه يضحي من أجله ويموت في سبيله !!

وحتى حين لا يبحث عنه، فإنه يتمسك بخط الدفاع الأخير .. حسن استقبال الحق، حين يأتي به الباحثون عنه إليه ..

وإلا فعل أحد الأمرين، فقد غرقت نفسه، ولن تنفعها آيات، ولم تنذرها عظات.. وستهلك كما هلك

الابن، ويد النجاة ممدودة إليه !.

أسرار الحياة

إن الحياة لا تلتفت إلى بكاء أحد، ليس قسوة منها، ولا عيباً فيها.. بل لأن الإنسان هو الذي أخطأ في التعامل معها.. إنها بطبيعتها وتكوينها، تدعو الإنسان إلى أن يعرفها فلا يصطدم بها، هي تريد له الخير، لا تريد للإنسان أن تترهل نفسه أو تفتر عزيمته عن المعرفة.

إنها صديقة ومحبة له.. لا ترغب في معاندته إطلاقاً..

بطبيعتها المتنوعة.. وحيويتها الدافقة.. وحركتها الدائمة، تريد الإنسان أن يكون مثلها حتى يحدث التوافق والإنسجام بينهما..

إنها تعتبر بكاء الإنسان، مثل بكاء الطفل الصغير.. حين يحاول النهوض على قدميه، فيقع على الأرض باكياً، ظناً منه أن الأرض هي التي ضربته..

ومع سذاجة هذا التصور بالنسبة للإنسان البالغ، إلا أنه يظل كامناً في عقله، وهو يحاول مع الأشياء التي تناسب عمره.. في اختبارات الحياة.

إنها تقول: ليس لك أن تبكي.. اكتشف نفسك.. غص في أعماقها.. اصبر على التواءاتها.. لا تخاف حين ترى عيوبها ونواقصها.. لا تفزع حين تراها شائهة.. امضِ في الرحلة حتى نهايتها، حتى تعرف مع من تتعامل، وكيف السبيل إليها..

بعدها..

التفت إليّ أنا، فاعرف من أكون.. وما هي طبيعتي وتكويني، وسنني وقوانيني.. عندها . عندها فقط . لن تصطدم بي، فسوف تحبني، وتحب الكفاح في..

إنني متاحة للجميع.. من يعرفني يملكني، ومعرفتي لا تتوقف عند حد، إنني دائماً شابة متجددة، ما ألبث أن يمضي العمر، حتى أعود شيقة جميلة من جديد.. هذه بعض أسراري أبوح بها إليك.. واكتشف أنت الباقي، فقط أقبل عليّ شرط أن تعرف نفسك أولاً وحقيقتي ثانياً، ولا تتوقف عن المعرفة، لأنني لا أتوقف عن الحركة.

الأرض الطيبة

يمشي في صحراء قاحلة جرداء، يحمل في يديه بعض البذور، .. يشعر بالحرارة الخارجية لطبيعة الصحراء، وبالسخونة الداخلية من البذور التي يحملها.. يعرف أنه يستحيل لتلك البذور أن تنبت في هذه الصحراء..

بعد فترة من الفشل في البحث عن الأرض الخصبة.. قرر أن يُعدل خطته.

المشكلة في الصحراء.. ؟!!

إذن علينا أن نتناسى أمرها، نتخيلها في عقولنا أرضاً صالحة، أو نتخيل أن الصحراء الجافة القاسية، ستغير طبيعتها لأجل البذور !

.. ويتخلص من حرارة البذور، ورغبتها في النماء، بإلقائها في الصحراء، وهو يقول : عسى أن تنبت.. أسأل الله أن تنبت.. أرجو الله أن يتقبلها !.

لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد..

لقد حدثت المفاجأة التي تكشف عن طبيعة النفس البشرية ؟!!..

إن النفس تبحث عن ثمار بذورها !!!

تعجب الجميع ..!!

قالت الصحراء : تعرفي أنني صحراء، نسيتي هذا، أو تناسيتيه.. هذا لا يعنيني.. لا تطلبي مني ثمار بذورك، لفظتها عندما تخلصتي أنتِ منها.

تخلصت منها ؟!! .. انتبهت النفس لهذا المعنى.. أنا بذرتها، ولم أتخلص منها.

اضطربت النفس، وطفقت تبحث عن الخلل، بالعودة إلى نقطة البداية.. عرفت أن العقل . استجابة لها . قرر أن يلغي قوانين الجميع : قوانين الصحراء، وشروط الثمار.. حتى يستريح من عناء حمل البذور، ومن المشقة المزدوجة بين السير في الصحراء، والبحث عن الأرض الطيبة.

وبعد هذه التجربة المتناقضة، بين التخلص من المعاناة، والبحث عن الثمار.. قررت النفس أن تراجع أمرها كله..

إنني لا بد أن أتخلص من معاناتي من حرارة البذور، ولا بد لي من تلبية رغبتي في رؤية ثماري التي تمثل الدورة الجديدة للبذور..

إذن .. علينا فهم طبيعة الوسط الذي نعيش فيه.

كانت قوانين الصحراء، سهلة.. واضحة، إنها لا تنبت البذور، ولا تحتوي على مقومات لها، ربما تجدى فيها بعض النباتات، لا تنخدعي بها.. إنها نباتات نعم، لكنها لا تثمر، إنها تكيفت على هذا الحال، وليست بنباتات فحسب.. إن سوائلها الداخلية شديدة المرارة، وتحمل الأشواك في طبيعتها الخارجية.. فلا تحسبيها من قوانيني، إن رمالي غير متماسكة، فكيف تمسك ببذورك، فضلاً عن أن تستنبتها وتستخرج ثمارها !.

أما قوانين الثمار، فكانت أكثر تعقيداً، وعمقاً، إن لها شروطاً كثيرة :

لا بد للبذور أن تكون صالحة، وألا تكون قد فسدت بطول حملها.. و الأرض لا بد أن تكون خصبة، تحتضن البذور وترعاها بحب وحنان ورغبة في الإمساك، وقدرة عليه كذلك..

التوازن بين تكوين الأرض الخصبة، وطبيعة البذور الصالحة، ... الرعاية الدائمة للأرض وللنبات المتولد من البذور.. الانتباه الدائم للتغيرات الخارجية، حتى لا يصيبها الأمراض.. الصبر على رحلة الإنبات حتى جني الثمار..

بعدها.. ستجدني ثمرة جميلة الشكل، حلوة المذاق، عندما تمسك بي.. ستنسى كل معاناتك وجهدك في الوصول إليّ.

حتى الآن، ليس هناك من مشكلة للنفس.. مشكلتها أنها تحمل البذور، بين الخشية في أن تفسد أو التخلص منها، والرغبة في رؤية الثمار، .. إنها لا تجد تلك الأرض الصالحة.. إنها لا تجد إلا الصحراء القاحلة.. إننا نعود إلى نفس المشكلة من جديد !.

هل يوجد حل ؟!

عند البحث.. لم نجد أي قانون يمكن تجاوزه، سوى تصور واحد، ليس بقانون.. يجب تحطيمه والتخلص منه.

(إنها لا تجد إلا الصحراء)..

علينا التوقف عن السير في الصحراء، حتى ندخر جهدنا في البحث عن الأرض الخصبة. فلا يمكن لنا السير في الصحراء، ونبحث في ذات الوقت عن أرضنا..

ومن قوانين الحياة، أن الأرض الصالحة حتماً موجودة.. فلنبحثها عن يقين بوجودها.

ولكي نحفظ البذور.. نعرضها لصفحة الوجود للتهوية، وللتأكد من صلاحيتها وسلامتها، حتى نجد أرضنا.. ولنحترم حقوق الجميع . الصحراء والثمار والأرض الخصبة . بعدم الاصطدام بقوانينهم.. حتى نصل إلى ثمرتنا الجميلة.

بذورنا هي (أفكارنا) فمتى نجد " أرضها الطيبة " ؟!

الشاطئ والسفينة

وقف الناس عند شاطئ البحر، ينظرون . في أوقات فراغهم . إلى سفن تسير في عمق البحر. فجذبهم عددها الكثيف وحركتها المسرعة في كل اتجاه، ووجد الناس في نفوسهم طاقة للإيمان بإحدى السفن التي تسير، ويستنفذون تلك الطاقة في تبني إحداها كي يُشجعونها، وهم واقفون عند الشاطئ، على طريقة تبني أحد المصارعين، كي يعيشون معه في (خيالهم) لحظة الانتصار المنشودة.

لكن السفن بعيدة.. بعيدة جداً في عمق البحر لا تبدو ملامحها ولا خصائصها ولا أهدافها.. لا يظهر للناس منها إلا خيالات أو صورة صغيرة جداً لا تُعبر عن حقيقة طبيعتها.

إن لكل سفينة خطيباً ومتحدث باسمها يحاول من بعيد . وهو في عمق البحر . والناس واقفون (في أوقات فراغهم) عند الشاطئ، يحاول أن يجمع المشجّعين والهاتفين لسفينته..!

انجذب الناس . وفق أهوائهم . إلى المتحدث الذي وافق طبيعتهم، وآمنوا بما يقوله، على الرغم من أنهم لا يعرفون حقيقة ما يقوله، ولا هو يعرف حقيقة إيمانهم بما قال !

وظن الناس أنهم آمنوا بعقيدة.. وظن خطيب السفينة أنه دعاهم إلى طريق سفينته.. فالناس عند الشاطئ واقفون، والخطيب بسفينته في عمق البحر يمضي .. فلا الناس يحدثون أنفسهم بخوض البحر، ليقتربوا من السفينة فيعرفون حقيقة ما يؤمنون به، ولا خطيب السفينة يقترب بسفينته من الناس فيرونها على حقيقتها، فيؤمن بطريقها من يؤمن على بينه، ويُعرض عنها من يعرض على بينه.

هذا ما تخيلته حين وجدت الناس يعتنقون عقيدة ما، ولا يعرفون عنها شيئاً، سوى أنها تستنفذ طاقة الإيمان عندهم.. وجدت دُعاة هذه العقيدة يحدثون الناس ويفتونهم وهم لا يعرفونهم.. ويرونهم من بعيد. فلا الناس تعرف مقتضيات الإيمان بهذه العقيدة، ولا دعاتها يعرفون مداخل النفوس وظروف البيئة لهؤلاء الناس.

فتذهب طاقة الإيمان و جهد الدعاة هباءاً.

وهذا على مستوى كل عقيدة..

الناس في (أوقات فراغهم) عند الشاطئ واقفون.

والدعاة في (عمق البحر) يهتفون.

يرفع الدعاة أيديهم إليهم، فترفع الناس الأيدي دليلاً على الإيمان والتأييد... يهتف الدعاة، فتهلل الناس فرحة وإعجاباً بالهتاف.. وعند (مقتضيات) الإيمان، و(تضحيات العقيدة) تخفت الأصوات، وينفض الناس في تعجب فلم يكن في حسبانهم هذه التضحيات أو تلك المقتضيات، وهم جاءوا في أوقات فراغهم يستمتعون..

ويتعجب الدعاة كذلك فقد ظنوا نفس الأمر، لكن بالعكس.. ظنوا أنه بمجرد إعلان التأييد والتشجيع، أنهم فهموا حقيقة العقيدة وتكاليفها.

إن على الداعي: أن يُبين . دون لبس أو غموض . حقيقة ما يدعو إليه.. يُبينه على أساس ظروف البيئة الواقعة، ومداخل النفس الحاصلة. .. وبالطبع على أساس أمانة الدعوة.

وأمّا من أجابوا الدعوة فعليهم: أن يعرفوا أن للدعوة مقتضيات، ولوازم وتضحيات.. وأن هناك جهد ومشقة وحرمان..

فهل يقترب الدعاة من الشاطئ ليشاهدوا حقيقة الناس، وهل تقترب الناس من السفينة فيعرفون ما هي، وعلى أي طريق تسير ؟

ابتسامة الحياة

لم أكن أعلم أنني ضعيف هكذا، أنا من يكتب عن المشكلات والأفكار والتصورات.. كيف أكون بهذا الضعف؟!

كيف اخترقت حواجز قلبي ؟!

كيف زلزلت كياني ؟!

قلبي الذي يصمد أمام الفتن المهلكة.. يختل فجأة أمام هذه الابتسامة !!

.. رأيتها قادمة أمامي.. فابتسمت إليها تلقائياً، ومن قبلها ابتسم قلبي وروحي.. فتبسمت لي.. ومضت..

ومضيت في طريقي، فإذا بي أجدها أمامي ثانية، تركب نفس السيارة التي أركبها، وقلبي يخفق أمامها، ولا أستطيع السيطرة عليه.. وأتعجب من حالي.. أحاول ذكر ربي، وقلبي ينتفض..

ثم نزلت من هذه السيارة . ومضيت في طريقي مسرعاً، ويكأنني أهرب منها، وأتمنى أن أنساها . لأركب سيارة أخرى لأكمل بها رحلتي..

أختي مفاجأة عميقة.. إذ بي أجدها . ومن دون كل السيارات التي تملأ المكان . أجدها تجلس إلى جواري.. لتكون المشيئة الإلهية التي أرادت أن تصحبني بها طوال رحلتي..

قلبي مضطرب، وروحي تهفو إليها..

أتمنى أن أحتضنها.. أقبل يداها.. واستزيد من ذكر ربي.. عسى أن يهدأ قلبي.. لكنها تغلغلت في أعماقي..

والسيارة تقطع الطريق مسرعة، قلبي يخفق بشدة، وابتسامتها أمامي، ومملكوت ربي من حولي.. تسجد له السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب.. كل الكون يسبح.. وقلبي لا يسكن، ولا يخلص لربي..

حقاً.. كم أنا ضعيف.. استشعرت قول ربي: { وخلق الإنسان ضعيفا }..

كيف لهذه الطفلة الصغيرة أن تفعل بي كل هذا ؟!

كيف لطفلة أن تزلزل قلبي هكذا، إنها أول مرة في حياتي ؟!

كيف سحرتني براءة عينيها ؟! كيف أخذتني ابتسامتها ؟! كيف أعجبني لعبها ؟!

كيف أصمد أمام الفتن، ولا أصمد أمامها ؟!

صورتها شاخصة أمامي، ويكأنها معي.. ويكأنها بين يدي..

لقد رأيت عجز نفسي أمامها.. وعرفت طرفاً من حكمة ربي، وتوجهت إليه . سبحانه . أسأله سكون نفسي، وأحاول أن يخلص قلبي له سبحانه، وأسأله الثبات، وأسأله أن يرزقني من لدنه ذرية طيبة يعز بها دينه، وتقر بها عيني.

الإنسان والأنعام

محاط بسياج قوية، وحراسات مشددة، وأسوار عالية، وأسلاك شائكة.. كان القطيع يرعى في حظيرته، هادئاً وديعاً، يحمل البراءة والطيبة، والاستسلام والانكسار ..!!

أدرك من سِير السابقين، وحال الحاضرين.. أنه وُلد في هذه الحظيرة، وستمضي حياته بها، وأن التي ترعاها.. الذئاب.

لم يكن الأمر مفاجأة ولا صدمة، فهي صفقة بين الذئاب و القطيع !!..

الذئاب، لا تريد لأحد الخروج من الحظيرة، و تريد الاستسلام لكل وضع فيها، والتضحية . حينما يجوع الذئاب أو كهدايا . ببعض أفراد القطيع.. كضريبة لحياتهم، وفي المقابل تترك الذئاب الأنعام لتعيش سنوات عمرها في طيبتها وبراءتها، وتربيتها للجيل القادم.

عرفوا من بعض حكمائهم، أنهم لم يُخلقوا أنعاماً، كانت لهم هيئة أخرى، أجمل بكثير مما هم عليه الآن.. ربما تكون الأجساد متشابهة..لكن الهيئة النفسية الروحية تبدلت وانحرفت.. إنهم خُلقوا بشراً، ثم حدث لهم تحول تدريجي . وهم في الحظيرة . حتى صاروا أنعاماً !!

كانت المعرفة تمثل ذكريات جميلة للعهد القديم.. وعليهم أن يستمروا في حياتهم، فليس لهم مفر منها!

مضت الحياة على هذا الحال.. الأنعام ترعى في هدوء، والذئاب تفترس في صمت.

رفعت الأنعام رؤوسها إلى أعلى تاركة طعامها ومتاعها.. لترقب معركة ضارية على أحد بوابات الحظيرة..

ساد الاضطراب المكان.. وتساءلوا : هل هناك ذئاب أخرى تريد افتراسنا ؟!

لم يأتهم خبر ما حدث، فالمعرفة من محرمات الحظيرة.. عرف بعض الفضوليون منهم أن هناك إنسان من الخارج يحاول دخول الحظيرة، فدارت معه معركة شرسة.

ارتعدت بعض الأنعام، التي راودها الحنين إلى إنسانيتها، خافت على حياتها، فقررت التخلص من هذا الحنين !

كان دخول إنسان إلى الحظيرة، يمثل خطراً كبيراً على حياة الذئاب ومصالحهم.. كانوا يدركون أن هذا تهديد رعيب لملكهم ولطبيعتهم..

إنهم لن يستطيعوا التمييز بين الإنسان وبين أنعام الحظيرة من الهيئة الخارجية، فكلاهما يحمل نفس المظهر.. بينما الهيئة الروحية والتركيبة النفسية مختلفة تماماً..

إنها بالنسبة للإنسان، ترفض الاستسلام والإنكسار، ولا تتعامل بطيبة وبراءة إلا مع إنسان مثلها.. إنها شرسة مع الذئاب.

فكر الذئب الأكبر فى حيلة للتعامل مع هذا الوضع..؟ .. إنها الإفتراس العشوائي بدلاً عن الإفتراس المنظم.. عسى أن يقع الإنسان الحقيقي تحت أنياب الذئاب، فيكون عِبرة ومَثلاً لمن تسول له نفسه أن يكون إنسانا !

سادت شائعات وأساطير في الحظيرة عن حقيقة الأنعام الأولى، وأن عليهم العودة إليها..

تعجبت الأنعام من تضحية ذاك الذي نشر بينهم هذه الخرافات..!

ظنت الأنعام أن في هذه الخرافة . بالعودة إلى إنسانيتهم . مَهلكة لحياتهم، وذرياتهم، وإن كانت الحياة في الحظيرة بها بعض العيوب والضرائب، فلا يمكن تركها لوضع لا نعلمه..

وعلى من نشر تلك الشائعات، أن يأتينا بحظيرة الإنسان، حتى ننتقل إليها..

كانت طبيعتهم قد تكيفت على الحظيرة، فظنوا أنه لا حياة لهم إلا في الحظائر !

كان شرط ! انتقالهم وتحولهم إلى صورتهم الطبيعية.. أحسن التقويم، هي حظيرة الإنسان..!

وما كان لهم أن يشترطوا، وما كان هناك حظيرة للإنسان..

إن الإنسان له الحياة بكل طبيعتها وجمالها.. أرضها وسمائها.. مياهها ووديانها.. كنوزها وثرواتها.. فكيف له أن يعيش في الحظيرة ؟!

إن كل ما يملكه الإنسان في هذه الحظيرة، هو بشرى ونذير..

بشرى : بإمكانية العودة إلى الحياة،

ونذير: بالهلاك في الحظيرة..

إنه لا يملك أن يصنع لهم ما يشتهون.

إنه ينبههم إلى حقيقة قوتهم.. إنهم جموع كثيرة.. والذئاب أعداد قليلة.

إنهم يستطيعون حفر أنفاق لهم، أو تحطيم جدران الحظيرة،والتحرر منها، والتنعم بعدها بكل الحياة.. عليهم تحطيم أصنام الذل والسلبية والتبعية في نفوسهم، وسوف تنهار الحظيرة، وتتحرر الأنعام، فتصير إنساناً.

عليهم أن يكونوا يداً واحدة في وجه الذئاب، عن إيمان ويقين أنه لا قيمة لحياتهم وهم أنعام.

كان هناك عقبة في هذا الطريق..

كان الإنسان والأنعام، يملكون طاقات متشابهة من حيث طبيعتها وتكوينها.. و بينما الإنسان يصرفها في رؤية شاملة لكل الحياة.. تتوزع فيها طاقاته في مساراتها الصحيحة؛ فيدرك أبعاد ذاته؛ فيعرف مركزه الصحيح من الوجود. .. فإن الأنعام تصرف تلك الطاقات في جزئيات صغيرة ضئيلة في حظيرتها؛ فتتبدد طاقاتها فيها، ولا ترى إلا ضباباً كثيفاً؛ فتعيش في التيه والفراغ.

كانت هذه هي العقبة.. فمتى تدركها الأنعام؛ ثم تجتازها ؟!

ذرة اليورانيوم

في باطن الأرض.. توجد ذرة اليورانيوم.. لا يصل إليها إلا من يبحث عنها بجد وجهد ومثابرة..

وحين يجدها، تكون نائمة.. خاملة.. غير مخصبة، وهي في حالتها تلك ليس لها قيمة !

وإذن فلا ينقطع الجهد والبحث عند وجودها.. وإنما تحويلها من حالتها الخاملة إلى النشطة، شرط قيمتها وتفاعلها..

متى تُخصب، وتصل إلى فاعليتها.. فإنها تفجر الطاقات، وتصنع المعجزات..

وليس لكل أحد أن يخصبها.. الكثيرون يجدونها في أرضهم صدفة أو بحثاً، لا يفكرون في تنشيطها، يفضلون بيعها خاماً خاملة.

قلة هي التي تستطيع التخصيب؛ وتصل إلى الكتلة الحرجة ..

إنها تبذل الكثير من أموالها لتشييد البناء الذي تتخصب فيه، وتنفق أبناءها وأموالها في سبيل الخير والقوة اللذان يأتيان من ورائها.. عن إيمان ويقين فيها.

وتلك أحد أسرار الحياة وقوانينها..

فكرة الإنسان، وذرة اليورانيوم .. كلاهما يقطع رحلة متشابهة..

في باطن الكتب.. توجد الأفكار، لا يصل إليها إلا من يبحث عنها، بجد وجهد ومثابرة.. إنه يجدها سطوراً في كتاب، ولكنها لا تتحول إلى الحالة النشطة، إلا أن تصبح دماء في عروق..

إنها هي هي الفكرة.. تحمل صورتان : حالة خاملة.. في الكتب والألسنة، وأخرى نشطة.. في القلب والروح.

ومتى تتحول إلى حالتها النشطة؛ فإنها تصنع الأمم، وتقيم الحضارات..

الكثيرون يحملون في عقولهم ومكتباتهم وأجهزتهم، موسوعات من كل علم.. إنها مثل ذرة اليورانيوم الخاملة، وأصحابها النائمون.. الذين يفضلون بيعها خاماً !!..

إنها تبكي حزينة على بيعها في الأسواق.. فليس هذا مكانها ولا مكانتها.. إنها حين تصل إلى فاعليتها في قلب إنسان.. فستأتي بأضعاف ثمنها البخس الذي بيعت به.

قلة هي التي تستطيع تخصيب أفكارها وتنشيطها.. وتصبر كذلك على تكاليفها.

إنها تهز أسواق الأفكار الخام الخاملة، وتهدد مصالح تجارها.. فيعلنون الحرب على تنشيط الأفكار.. فيقيمون البنايات المزيفة التي تدعي تخصيبها للأفكار، بينما الأفكار تصرخ بين أيديهم، وهم يغتالونها.. ثم يعلنون أمام الناس، وأيديهم تتقاطر من دمائها.. أنه تم تفعيلها..

خيانة للفكرة، واستخفاف بالإنسان..

إننا حين نقوم بتخصيب الأفكار التي تتوافق مع حقيقة الإنسان، وسنن الحياة.. وتصل مجموعة من هذه الأفكار إلى كتلتها الحرجة، ونسبتها المطلوبة.. فإنها ستنشط، لتحيي الأمم، وتنفذ الإنسان، وتحطم أسواق الأفكار المزيفة.

ثورة الرياح

اشتدت الرياح في ثورة عارمة.. تدمر كل شيئ أمامها، تقتلع الأشجار، وتزلزل البيوت، وتثور الأمواج.. حتى اخترق دبيب الخوف قلوب من شاهدوا تلك الرياح، فانصرف كل منهم إلى مكان ليختبئ فيه.

وحين رأت الرياح . وهي في ثورتها . هروب الناس منها، حزنت على حالها ووحدتها.. إنها تحمل إليهم ورقة تفيدهم في البحث عن الطريق.. !

لقد اصطدم الجميع بالأشكال الخارجية، ولم يعرفوا الرسالة الحقيقية.. لم تشاهد الناس من الرياح إلا عواصفها وزوبعاتها وتدميرها.. ولم تلتفت الرياح إلى قوتها وهيجانها وهي تحمل ورقتها.

هذا هو المشهد الحقيقي لطغيان الفكرة في قلب إنسان..

وليس لكل الأفكار طغيان، إنها فقط الأفكار التي وُلدت حية.. الأفكار ذوات الأرواح. إنها غالية على الإنسان مثل الأم ووليدها.. إنه يشعر بها وهي تتحرك داخله، وتعيش معه، وتطلب الغذاء كي تعيش وتستمر وتتجدد.

وحين تنمو وحيدة بلا أخوات.. فإنها تتمرد عن حجمها الطبيعي، وتريد بصاحبها الطغيان..

أرأيت الأم حين تُدلل صغيرها الوحيد.. فينشأ عاصياً متمرداً بالرغم من حب الأم وحنانها.. الأفكار كذلك، فحين تُدلل فكرة وحيدة.. فإنها تتمرد، وتستعصي على صاحبها، وتُعطل كذلك الولادات الجديدة.

وحين تستوعب الأم صغيرها لأنه ولدها، فإن الفكرة كذلك أيضاً.. لا يستوعب طغيانها إلا صاحبها التي وُلدت في رحم عقله.. ولا يستطيع الآخرون أن يطيقوا طغيان فكرته ومخاضها، فيحدث مشهد الرياح وهي تثور.

وحين تطلب الفكرة الحركة والعيش بين الأحياء، لأنها من ذوات الأرواح.. حين تطلب هذا، وهي بطغيانها، فإنها تُهلك نفسها، لأنها تعرض ذاتها في مشهد قبيح تنفر منه الأحياء.. الذين لا يشاهدوا إلا الطغيان، الذي يغطي روح الفكرة وهدفها.

إن مشكلة هذا الإنسان الذي دَلل فكرته، حتى طغت وتمردت، هو أنه نسي أن لها أخوات.. نسي أنها إضاءة صغيرة على الطريق، وليست هي كوكب النور، وليس في طريق الرحلة كوكب نور.. إنه طريق.. أي كي يبصره الإنسان، لا بد أن يحمل الأضواء المتنوعة على جانبيه طوال الرحلة.

إنه حين يقنع بفكرته، ولا يريد لها شريكًا.. فإنه يحكم على نفسه بالعقم، وعلى فكرته بالضياع..

إنه لا بد من وجود أخوات.. حتى تنمو الفكرة بحجمها الطبيعي، وبوظيفتها المناسبة.. وتلائم كذلك طريق الرحلة الذي يحتاج إلى جهد الجميع، وليس إلى ثوراتهم وهيجانهم.

وحتى تظهر الفكرة بالمظهر اللائق الجميل.. علينا أن نعلمها الأدب واللباقة، كما تعلم الأم طفلها أدب الحديث واحترام الآخرين حتى يقبلوه بينهم.. وإن كان هناك من ثورة أو تمرد لفكرة، فعلينا ألا نفضحها أمام أعين الناس، فيظنوا أن هذا سلوكها الدائم، فينفروا منها ولا يقبلوا عليها.. علينا أن نستوعبها نحن.. فنحن أحق بتكاليفها من غيرنا، علينا كسوتها ورعايتها حتى تنضج، فيراها الآخر.. زهرة جميلة في بستان كبير، تحمل الثقة في ذاتها.. والروعة في مظهرها.. والشذى في عطرها، فيقبل عليها الآخر من تلقاء نفسه، لأنه يحتاج إليها.

أما مشهد الطغيان، فإنه يترك الفكرة وحيدة.. فالناس يختبئون منها، مثلما يختبئون من الرياح، وإن كانت تحمل لهم الخير !

اختبارات الحياة

يعيش في قصور ضخمة.. أموال وفيرة.. متع كثيرة.. أو يعيش في فقر مدقع.. واحتياج شديد، أقعده المرض.. نُبذ صحته.. مشتت عقله.. مريض قلبه.. منحرفة نفسه..

آلاف من الاختبارات، لا تحصيها إلا دورة الحياة..

لا يختارها الإنسان، ولا يُحدد توقيتها، ولا مدتها، ولا طبيعتها، ولا موعد الإنتهاء منها، وعلى قدر الإنسان يكون مستوى الاختبارات..

اختبارات متنوعة شديدة، لكنها لا تخرج عن حدود الإنسان، إنه يُختبر فيما وُهب له.. يُختبر في مشاعره.. في فكره.. في ماله.. في فقره.. في وقته.. في صحته.. في علمه.. في نفسه...

لا تنقطع الاختبارات، حتى يأذن من وهب الحياة بإنتهائها، لتبدأ مرحلة ا لجزاء.

يدفعه العدو الأول، أن يغفل عنها، أو يفشل فيها.. بالطغيان: إن كان من المُختبرين بالخير، أو باليأس: إن كان من المُختبرين بالشر.

حين يغفل الإنسان عن اختبارات الحياة، تضطرب رؤيته، ويشعر بالتيه، والتناقض بين مكونات الحياة.. إنه يشعر أنها غابة عليه التوحش فيها، حتى يستطيع البقاء فيها ! يضع لنفسه قوانين باطلة قائمة على رؤية خاطئة، وكلما فشل في اختبار، تعمق في التيه، وازداد غموضاً واضطراباً.. حتى يذهب في ضلال بعيد لا يستطيع الرجوع منه..

رحمة من ربك.. فإنه ينبه الفاشلين ـ ببعض ما اقترفته أيديهم ـ بالكوارث والمصائب، لعلهم يرجعون.

ومتى أدرك الإنسان الحياة، وحقيقة اختبارتها.. فإنه يشعر بمكانه، ومكانته.. ويعرف التوافق والتناسق ودقة التركيب بين مكونات الحياة..

تتعدل رؤيته، ويشعر بالاطمئنان إلى الحياة بكل اختباراتها.. ويمضي برضى إلى اجتيازها، وكلما نجح في اختبار.. كلما ازداد اطمئنانه.. كلما اقترب من مركزه الصحيح من الحياة..

قلة هي التي تدرك الحياة، وتنجح في اختباراتها !

حمل الإنسان الأمانة.. أمانة الاختيار وأمانة العقل، الذي يملك القدرة على الاختيار.. وسوف يؤدي تلك الأمانة . أمانة الاستسلام لله . شاء أم أبى..

من يؤديها . باختياره . في دنياه، فسينعم بالجنة في أخراه.. ومن يخونها في دنياه، فسيؤديها في النار، في ذلة وخزيان.

من يطلب النجاح والهداية من واضح الاختبارات، فإنه يوفقه فيها.. ومن يُعرض عنه، بقلبه أو عقله أو نفسه أو روحه، فإنه يطغى أو ييأس؛ فيفشل فيها.

يحتاج الإنسان إلى إعداد لكل اختبار يمر به، وهداية في كل خطوة يخطوها.. فعليه أن يُذاكر فيما هو مُختبر فيه الآن، ولا يشغل باله بما لم يأتيه.. حتى ينجح بتفوق، ويستمر فيه، حتى يلقى ربه.

القارب الصغير

الظلام يعم المكان، والحركة في كل اتجاه، والصوت يعلو هنا وهناك، والكل يُسرع قبل فوات الأعمار..

وأبحر وسط بحور مظلمة، وأمواج عاتية حيناً وهادئة أحياناً أخرى.. أسير بقارب صغير يكاد يكفيني، ومعي مصباح يُضئ، حتى يبدد ظلام البحور، ويخفت حتى لا أرى به إلا نفسي.

حين توهج المصباح.. رأيت سفناً عملاقة، ضخمة، تسير بسرعة منهلة بالنسبة لقاربي الصغير !!

وحين أضاء المصباح أكثر.. رأيت شيئاً غريباً..

كل هذه السفن العملاقة الضخمة تفتقد إلى مثل مصباحي المضئ الجميل !!

رأيت السفن.. تسير بقوة وعزيمة.. تبحر في التيه الكئيب الشديد الظلمة بلا هادي، وتتخبط فيما بينها هذا التخبط الشنيع.. وتمضي في الاتجاه المضاد لها..

كلما توهمت طريقاً شقته مسرعة وي كأنها هاربة، والناس يعملون بجد، والقادة لا تعرف الطريق !!

أضاء المصباح أكثر...

رأيت الناس يتساقطون من سفنهم الضخمة موتى، فقدوا نفوسهم في التيه، فقدوا التخلص منها، فلم يجدوا أي معنى لإكمال الرحلة بعد ذلك.

فانتبهت منزعجاً ومشفقاً وحزنياً و غاضباً..

أيها الناس : أصحاب السفن العملاقة.. إنكم في التيه، إنكم تضلون الطريق.. أنا أعرف الطريق الصحيح.

انظروا : إنها واضحة معالمه.. مضيئه جوانبه.. إنه حقيقة تشهد عليها كل حقائق الوجود.. إن نهايته سعيدة.. خيراته كثيرة..

أيها الناس : أرفعوا الغشاوة عن قلوبكم.. أزيلوا الأوقار من أذانكم.

نظر الناس من سفنهم الضخمة في عجب.. وتساءلوا :

كيف لمثل هذا الضعيف أن يتجرأ على النصح لنا ؟!!

كيف لصاحب القارب الصغير الحقير أن يعرف الطريق، ونحن أصحاب السفن القوية والعدة الضخمة، أن نضل الطريق ؟!!

ومضى الناس يلهثون ويعملون ويتحركون وسط الظلام الكئيب.. والسفن تسير مسرعة.. مُسرعة بهم إلى الهلاك.

وبينما أمضي أنا في طريقي.. إذا بالموج قد اشتد، فاهتز القارب الصغير، وتزلزلت جوانبه، وتدرجرجت أركانه..فتهاوت معه نفسي..

حاولت إعادة التوازن إلى القارب، فوجدت نور المصباح قد خفت.. خفت حتى أظلم كل شيئ حولي.. ولم أعد أرى شيئاً سوى نفسي..

نظرت إليها مبتسماً.. فرأيتها كالطفلة الصغيرة.. فسألتها :

ما كل هذه الأخطاء والحماقات.. لماذا تهاويتِ ؟!

فأجابتني برقة وحزن..

كانت الأمواج قوية والرياح شديدة وخفُت نور المصباح.. فوقع الخطأ ضعفاً وجهلاً مني.. فاطلب لي العون من هادي الرحلة..

اطلب منه السكينة والطمأنينة، فإنهما وقودي..

اطلب منه الرحمة واليقين، فإنهما زادي..

اطلب منه الحب والحنان، فإنهما حياتي..

فطلبت لها ما أرادت.. فاستجاب هادي الرحلة.

فانتفضت نفسي قوية مشرقة.. وأضاء المصباح من جديد.. ليبدد الظلام الكثيف، ويرشد إلى الطريق.

ضد التيار

إنها رحلة مُهلكة تلك يقطعها الإنسان في حياته، حين يعيش بين جهله لذاته، وعلمه بأشيائه.. بين إيمانه بالخرافة، وكفره بالحقيقة.

إن الإنسان الذي يريد أن يتحدى كل شيئ حوله، لينقذ إنسانيته من براثن واقعه، هو في الحقيقة لا يريد أن يتحول إلى آلة أو حيوان.. إنه من المكافحين الذين يبحثون عن حريتهم.. إنه في كل شيئ يريد فيه إنقاذ نفسه، عليه أن يسبح ضد التيار.

وما أشده من تيار.. إنه يجرف كل شيئ يمر عليه، ويحطم كل شيئ في طريقه.. إنه يجرف المبادئ والقيم، ويحطم المشاعر والأخلاق، ويترك النفس عارية وسط التيار..

لكنها سرعان ما تجد عرايا مثلها فتطمئن لحالها.. ثم ينتهي التيار إلى الهاوية !

وبعد سقوطهم في الهاوية، سيكتشفون أنهم كان يسبحون في بحار ليس لها إلا شاطئ واحد.. في الاتجاه المضاد.. شاطئ النجاة !

إن الذي يسبح ضد هذا التيار العنيف، يُثبت لذاته وللأحياء من حوله، أنه قادر على الصمود.. قادر على المقاومة رغم شدة التيار.. إنه يملك قرار الانتصار.

إنه يشعر بالألم من كل كيانه بتلك السباحة المرهقة، ولربما فقد شيئاً من ذاته في خضم المعركة. لكن إيمانه العميق بالطريق الذي يريد الوصول إليه، وبالحرية التي يعرف قيمتها، وبالإنسانية التي يريد تحقيقها.. تجعله لا يلتفت إلى جراح المعركة وآلامها .. إنه ينظر إلى شيئ واحد.. السهم الذي يشير إلى الطريق المؤدي لإنسانيته، ويجعله يُضحي في سبيل الوصول إليه.

و تمضي الحياة، وتتداول الأيام، تارة يسبح بقوة، وتارة يفتر عن السباحة فيقف في مكانه، فلا يلبث أن يجذبه التيار في طريقه لأنه لا يتوقف عن الإندفاع.. الأمر الذي يجعله لا يتوقف عن السباحة.. في الاتجاه المعاكس.

ينجذب حيناً من الدهر مع التيار، فتقع عينه على القاذورات، ويشعر بالاضطراب بين مكوناته الداخلية، وتركيبة التيار الخارجية.. فلا يحقق سعادته، ولا إنسانيته.

وحين يستفيق على القذارة التي تعيشها نفسه مع العرايا بلا لباس.. تنهض فيها الهمة من جديد، لتحقق النجاة لذاتها.

وبعد فترة من السباحة.. أصبح كل فريق قوي في اتجاهه، من يسبح مع التيار صارت له أذرعاً قوية يسبح بها بسرعة في المستنقعات الأسنة، ومن يسبح ضد هذا التيار صارت له أذرعاً تربت وتكونت على هذه السباحة.. إلى المياه العذبة والحياة النظيفة.

إن العجيب في تلك الرحلة، أن الإنسان يدفع تكاليف سباحته في أي طريق يسير..

لا بد له أن يبذل جهداً كي يسبح إلى الهاوية.. ولا بد له كذلك من جهد كي يصل إلى شاطئ النجاة.

إن هذا القانون، حين ننظر في حكمته نجد أنه يُسهل على الإنسان الاختيار الصحيح.. إذ أنه يقرر قاعدة بذل الجهد على الجميع، ويترك الإنسان أن يختار أين سيبذل هذا الجهد..

ومع سهولة الاختيار، إلا أن الإنسان ينخدع بكثرة المتجهين بغاية جهدهم وكفاحهم إلى الهاوية..

إنه يضع لنفسه قانوناً ليس له أساس ولا يقوم على دليل وهو: " طالما أن كل هؤلاء يسبحون في هذا الطريق، فلا يعقل أنهم من الهالكين" لقد انخدع المسكين أمام هذا المشهد الدائم التكرار.. ولو سأل من يتجه إلى الهاوية: ما حملك على هذا، لأجاب: رأيت الناس يتجهون إلى هذا الطريق، فاتجهت مثلهم.

لقد نظر إلى هؤلاء على أنهم فريق واحد، تشاوروا فيما بينهم ليحدودا طريقهم..

كـــلا..

إنه إن أمعن النظر، لوجد كل واحد منهم لا يعرف الآخر، ومتوجس منه، ومختلف عنه ومعه.. إنهم يحملون نفس الخرافة التي تخترق عقولهم، عند رؤية الكثرة الكثيرة تمضي في طريق الهلاك.

وحين يستشعر الإنسان الإيمان بذاته ووجوده، وقدرته على الاختيار والتحدي والمواجهة، سيسبح ضد التيار.. وسيصل إلى شاطئ النجاة حسبما بذل من جهد..

فهناك نفوس تهفو إلى الاطمئنان على هذا الشاطئ، فتندفع بسرعة تأخذ الإعجاب، وبتضحية تزكو بالنفوس.. لتختصر طريق الرحلة، بمزيد من جهدها وعطائها..

وهناك نفوس تسير على مهل تتمعن الرحلة، وبعد فترة من المعاناة، تستشعر لذتها..

وهناك النفوس التي تؤمن بالطريق، لكنها تضعف بين الحين والآخر.

ولأنهم يسبحون ضد التيار.. الذي تختلف شدته من حين إلى آخر، ويختلف ما يجرفه ويحطمه ويسلخه من الإنسان..

ولأنهم معرضون أن تخطفهم أمواج التيار، أو يضعفون أمامه فيسقطون.. كان عليهم أن يُذكروا أنفسهم . حين تنسى ذاتها في خضم المعركة . أنهم مختلفون عن الآخرين، لقد جمعهم هدف وعقيدة..

إنهم يحملون ما لا يحمله الآخرون، ولهم من المشاعر والخلجات ما لا تستقبلها قلوب الآخرين..

إنهم كي يصلوا إلى الشاطئ عليهم أن يكونوا يداً واحدة معتصمة بحبل النجاة، تصمد أمام التيار مهما بلغت شدته.. فلا يسقط منهم أحد.. أو تفتر عزيمة البعض !

إنها لرحلة ممتعة تلك التي يُصهر فيها الإنسان على نظافة مشاعره وأخلاقه.. لأنها يحقق فيها إنسانيته، ويصير كياناً متميزاً، يستحق أن ينعم بالحياة على شاطئ النجاة.

وبعد تلك الرحلة الطويلة التي قطعها الإنسان، وهو يسبح ضد التيار.. ودفع تكاليفها عن يقين في الهدف المتجه إليه.. أخيراً وصل إلى شاطئ النجاة..

وما أن وصل، حتى ألقى بجسده.. يستريح من المعارك التي خاضها، ومن المشاق والصعاب التي واجهها.

إنه يرى الآن كل شيئ حوله جميلاً.. متألقاً.. نقياً، تنطلق منه نسمات الحياة في كل اتجاه.

كان الشاطئ مدخلاً إلى حديقة الحياة، بكل ما فيها من روعة وجمال..

دَعته الحديقة إلى اكتشافها، واستخراج كنوزها، وإلى إقامة الحياة الجديدة بعد تلك الرحلة.

دعته هو والناجين في تلك الرحلة إلى تخطيط تلك الحياة، فهي واسعة.. ممتدة..

إنهم انتقلوا من مرحلة النجاة، إلى مرحلة البناء، ولن يستطيع أحد البناء وحده.. عليهم الاجتماع على العمل، وفق قوانين الحديقة.. لينعموا بالحياة فيها، وليدافعوا عنها من كل عدو يتربص بها.

وأول ما دَعته الحديقة إليهم، أن يصنع كل فرد منهم لنفسه دوراً وفق النعم التي وهبها الله له، ووفق طبيعة الحياة الموجودة في الحديقة، ونبهتهم إلى الوقوف على كل ثغورها.. فلا ينفذ إليها عدو، عن معرفة بطبيعة الثغور، وأنواع الأعداء.

كان تزيين الشاطئ ورعايته، حتى يكون في أحسن صورة، من ضروريات العمل.. وكذلك إقامة محطات الاستقبال على الشاطئ، ورفع رايته عالية.. في كل اتجاه حتى يراها القادمون من بعيد.

وبعد أن عرف الناجون، أبعاد الحديقة ومركزهم منها.. وطبيعة أراضيها ومياهها، أقاموا بنايتهم عليها.. دون ترهل أو عشوائية.

وعلى قدر جهدهم، كانت حياتهم.

كان التوافق والتكامل في أعمالهم، هو سر بقائهم. فتحركت حياتهم بانتظام ودقة؛ لتخرج الجيل الجديد الذي سيكمل البناء.. ويدافع عنه.

مشاعر مجهولة

يناجي القلب ربه..

" رب هب لي من لدنك ذرية طيبة، تحبها، وترضى عنها، وتعزها بعزك، وتنصرها بنصرك، وتؤيدها بتأيدك، وترحمها برحمتك يا أرحم الراحمين "

لا أعرف سر هذا الحنين إلى الذرية.. إنها نقطة الضعف التي تجعل قلبي يخفق بشدة، يشتد حنينه ولوعته حين يرى الأطفال حوله.. إنها المشاعر التي مرت بي، وفشلت في معرفة أسبابها.. إنها تأسر قلبي، لتأخذه في عالم آخر.. إنها تفجر في الطاقات..

اشتاق إلى ابنتي حبيبتي.. حقاً لا أعرف ما سبب هذا الاشتياق، إنني أحاول أن أعد لها الحياة التي تتمناها، الحياة التي تحقق فيها فطرتها، وسعادتها.

أتصور كل مشكلة في دنيانا.. تواجهها ابنتي التي تعيش في قلبي.. وأروح أبحث عن حلول، كأنها حزينة باكية أمامي..

أحاول أن أروض لها الواقع المتوحش، كي يتسنى لها العيش فيه..

أتمنى أن أصنع لها كل شيئ تحبه.. أريد أن أضع لها منهجاً تربوياً واقعياً عملياً، يحتضنها هي وعواطفها وحيائها وكيانها.. فلا يقسو عليها، أو يضغط على مشاعرها.. أو يخالف فطرتها وأهدافها، كل هذا بالرغم من أنني لم ألمسها بعد.

إنني لم أجد واقعاً يناسبها حتى الآن، لا أتخيلها تعيش هذا الواقع المظلم الكئيب.. ربما يوفقني ربي في إخضاع الواقع لأهدافي.. لكن ماذا بمشاعرها هي، هل تستطيع الصمود ؟

على قدر لهفتي لها، وعظيم حبي لقلبها، ولوعة اشتياقي لروحها.. إلا إنني أفضل ألا أراها تعاني تلك الحياة، فأُبقيها في خيالي وحلمي.

لكن، لا مفر من المواجهة..

إن الحياة في ذاتها نعمة عظيمة، ومعرفة الطريق في هذه الحياة نعمة جليلة، وكلاهما وهبهما الله . سبحانه .

الأولى : لكل إنسان.

والثانية : لمن يحب وأراد، وأحب وأناب.

إذاً : فلم الخوف من الحياة، إن خالقها حنّان.. رؤف.. رحيم.. ودود، يحب عباده، ولا يتركنا سُدى.. فلا تخافي ولا تحزني نفسي على ذريتكِ..

هل ترك موسى . عليه السلام . وأمه، أو مريم . عليه السلام . ووليدها.. هل ترك امرأة فرعون..

إنه على كل حبكِ ولهفتكِ نفسي.. فالله أرحم بذريتكِ منكِ..

لقد نسيتي في خضم مشاعركِ وهي تفيض منكِ، وتعبر بكِ حدود الواقع.. أن الله سبحانه هو الذي يملك تلك الخزائن.. يملك خزائن الحب والحنان والرحمة والرعاية.. وكل ما فاض منكِ، فهو قطرات منها !

لا تخافي ولا تحزني نفسي..

عليكِ فقط بمواصلة الجهد لتطهير الحياة من الملوثات كي تهنأ ابنتي وتسعد بها.. طهريها من كل الملوثات الفكرية والنفسية والواقعية والسمعية والبصرية.. فتلك وظيفتكِ.. ابذلي جهداً مضاعفاً في إنشاء الواقع الصحيح.. اصمدي أمام الواقع القاسي.. مهدي الطريق لمن سيأتي بعدكِ.. كافحي من أجل استلام الذرية الراية مرفوعة، كي يكملوا الطريق، ولا يبدأوا من نقطة الصفر فيه.. اصبري على تكاليف التضحية.. امسحي بقلبكِ عقبات الطريق..

ترجمي مشاعر الحب والاشتياق إلى أعمال تنفذكِ وذريتكِ في طريق الرحلة الشاق الطويل.

أين أنتِ ؟

من أنتِ؟

قلبي، يبحث عنكِ.. يشتاق إليكِ.. يذوب فيكِ.. يحن إلى رؤيتكِ..

عقلي، يفكر فيكِ.. يرسم صورة بديعة لكِ..

روحي، تهفو إليكِ.. لا تمل منكِ..

الجميع يبحث عنكِ، فمن أنتِ ؟

تمضي بنا الحياة، على أمل في لقياكِ.. نبحث وسط الزحام الهائل، ربما يحجبكِ عنا..

إننا لم نيأس..

الجميع في انتظاركِ.. قلبي يدخر لكِ حباً عظيماً صافياً نقياً، وروحي تنتظر التئام شطرها الثاني، لتكون كياناً واحداً..

إننا نعرفكِ جيداً..

أنتِ التي يبتسم قلبها، وتسمو روحها، وتسكن نفسها، ويفيض حياؤها..

أنتِ التي تحب الحب، وترجو الخير، ويتدفق حنانها..

أنتِ الشمس المشرقة، والقمر المتألق، والنجم المضئ..

إننا نعرف الطريق إليكِ..

نصل إليكِ عبر جسر الحب الممدود الموصول بالسماء.. ذاك الجسر الذي يعبر عليه المحبين.. ويستمدون منه أرقى مشاعر حملها قلب إنسان.. إنهم يُغذون أنفسهم بهذا الغذاء الفريد.. إنه النبع الذي لا ينضب، والمعين الذي لا ينفد..

إنها محبة الخالق العظيم.. التي ترتقي بالإنسان، فيدرك معنى الحب في قلبه.

أنتِ على الجانب الآخر من الجسر.. مع المحبين، لن نَمل من محاولة العبور إليكِ.. إننا نُصلح جسورنا مع النبع الأول.. مع من يملك خزائن الحب.. حتى يصير لنا قلباً يستطيع أن يحب.

ثمة سؤال يلح على نفسي ولا تجد له جوابا،

بالرغم من معرفتكِ، ومعرفة طريق الوصول إليكِ..

هل أنتِ على الأرض.. أم في السماء ؟!!

ليس يأساً من الوصول إليكِ.. فنحن ننتظركِ إن كنتِ في السماء.. وإنما سؤال لنفسي، لتستعد، وتتهيأ لكِ، أينما كنتِ.

لن أخفي عليكِ،

حين ناجيت ربي : " اللهم زوّجني زيجة طيبة مباركة، تسكن بها روحي، وتطمئن لها نفسي، ويفرح بها قلبي" شعرت أنكِ في السماء !

لن أخفي عنكِ، أنني قلت، كما قالت أمنا مريم . عليها السلام . : " إني نذرت للرحمان صوما..

حبيبتي في السماء" حين قلتها، أحسست أنكِ قريبة مني، على بعد المسافة بيننا.

إننا نعرف، أنكِ تحملين ما نحمله من أشواق، ولهفات، ومحبات..

ولأجل هذا فنحن ننتظركِ، في أي مكان كنتِ.

بلا وطن

ليس معنى أنك ولدت في مكان أو زمان، أن هذا وطنك، وذاك زمانك.. كما لا يعني أن تملك جزءاً فيه أن يكون لك وطناً !!.

بالتجربة عرفت.. وما أقساها من تجربة.. حين يكتشف الإنسان بعد رحلة طويلة أنه بلا وطن.. وأن للوطن مدلولاً عظيماً لم يكن يتصوره.

غريب على النفس أن تجد نفسها في مكان مكثت فيه من العمر الكثير، ثم تكتشف أنه ليس بوطن..

إذاً : فماذا هو ؟!

أكبر شيئ يعتز به الإنسان في حياته.. هي تلك التي تجعله يُضحي من أجلها، ويكافح حتى يدركها.. الحقيقة.

لن يشعر الإنسان بمعنى الوطن، إلا حين تكشف له الحياة عن أسرارها، بالتفاعل مع مكوناتها..

إن للو طن، معنى مختلف تماماً عما تتوهمه الأذهان أو تستقر عليه العقول..

تعرف النفس معنى الوطن، حين تبكي الروح حزينة وحيدة، لا تجد المكان الذي تستقر فيه، وتطمئن إليه..

حين يبحث العقل عن عالم لقيمه ومبادئه فلا يجد..

حين يبحث القلب عن قلب مثله فيفشل..

عندها يكتشف الحقيقة.

وليس المكان وحده.. بل حين يبحث الإنسان عن نسبه، فيجده مقطوعاً من أقرب حلقاته.. حين يبحث عن نسبه العاطفي الوجداني الشعوري . حين يبحث عن ذاته . سيعرف أنها ليست غربة الوطن وحدها..!!

وحين تكتمل به رحلة الحياة، يعرف أن الذي يملك، هو من يستطيع أن يُملك ما ملك.

الوطن: هو ذاك المكان الذي تسكن فيه الروح، وتطمئن إليه القلوب..

والنسب: هم أهل هذا الوطن..

والملك: هو ما صنعه الإنسان بيديه، ثم أنفقه في رضا من وهب له عينين، ولساناً وشفتين..

وجدتها تتفق مع بنية الإنسان، وتأتلف مع تركيبته وتكوينه.

وعندما ترتفع النفس أكثر، وتصر على البحث، وتصبر على الغربة عن الأوطان.. ستكتشف الحقيقة كاملة!!

إنه إن وجد أو صنع وطنه على هذه الأرض، واستقرت فيه الروح، يجد أنها مازالت تبحث، ولا تصفو الصفاء التام الذي ترجوه..

مشدودة إلى أعلى، تبحث عن السمو.. وأخيراً: عرفت موطنها الأول، وسكنها الكامل، وحياتها الطيبة..

إنها: الجنة..

وفي الجنة: حيث الوطن الحبيب، والنسب العريق، والخير الكثير.. مازالت تبحث.. !!!

عن أي شيئ.. بعد كل هذه الرحلة بكافة معاناتها ؟!

تبحث عن من نفخها أول مرة.. إنها تبحث عن بارئها.. فعنده يتوقف كل شيئ عن الإلحاح، وتطمئن ذات النفس.. عنده يسقط الاحتياج للاطمئنان.. الذي دفعها . بفضل ربها . إلى جنته.. يتوقف هذا الاحتياج، لأنه ليس بعد الله شيئ.. فعند ربها المنتهى.

وليس للروح بعدها حاجة أن تعرف، فلم تعد تحتاج المعرفة في شيئ..

إنها تذوقت.. وتريد أن تعيش لذتها كاملة..

مع ربها.

مسلم يريد لأمته الإسلامية، العزة والريادة
يريد لها القيادة والإمامة والوراثة
يريد لها الحرية والكرامة والإنسانية
تحت راية:
لا إله إلا الله، محمد رسول الله
محرم 1427، مارس 2006